تمهيد

لسنا بحاجة إلى كثير شرح لنبين خطر الفلسفة اليونانية فى تاريخ الفكر ، فقد يكفى أن نذكر أنها فلسفة الشرق الأدنى منذ فتوح الإسكندر ، وأنها فلسفة الغرب منذ استولى الرومان على بلاد اليونان فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد ، فعرفوا نبوغ المغلوبين وأخذوا عنهم أسباب الحضارة المادية والعقلية ومنها الفلسفة . واصطنع المفكرون المسيحيون هذه الفلسفة ، ثم اصطنعها المفكرون المسلمون . ودخلت المدارس فى الشرق والغرب ، فكونت العقول وهيمنت على وضع العلوم .

أجل لقد وجد العقل مع الإنسان وبقى هو هو فى جوهره ، واستخدمته الأمم الشرقية فى الماضى السحيق فاستحدثت الصناعات والعلوم والفنون ، ولقنتها لليونان ، فأغنتهم عن بذل الجهد والوقت فى استكشافها بأنفسهم . وفضلا عن الفنون والعلوم ، نجد عند الأمم الشرقية القديمة قصصاً دينية وأفكاراً فى العلم والحياة ، إذا اعتبرنا موضوعها ومغزاها رأيناها حقيقة بأن تسمى فلسفية ، فقد نظروا فى أسمى المسائل ، مثل الوجود والتغير والخير والشر والأصل والمصير ، فكان التوحيد والشرك ، وكانت الثنائية الفارسية ، وكانت وحدة الوجود عند الهنود ، وكان غير ذلك ، ولم تخرج الفلسفة فيما بعد عن هذه النظريات الكبرى ، بل قد نستطيع أن نجد لكل فكرة يونانية مثيلة شرقية تقدمتها ، أو أصلا قد تكون نبتت منه .

غير أننا إذا لحظنا صيغة القول ومنهج البحث عند الشرقيين ، لم ندع هذا الضرب من المعرفة والتفكير علماً وفلسفة ، بل دعوناه ما قبل العلم والفلسفة . فإن علومهم جميعاً ، من حساب وهندسة وفلك وغيرها ، لم تكن تعدو ملاحظات تجريبية أدت إليها حاجات عملية ، وفيها تعثر وتردد يدلان على أنه لم يكن لدى أصحابها أية فكرة عامة عن المبادئ والعلل والبرهان . هذا رأى العلماء المحدثين[1] ؛ بل هذا رأى عالمنا الكبير

---

(١) « الكتب الهندية والبهلوية مصنفات عملية مقتصرة على منطوق القواعد وشرح استعمال الجداول خالية عن البراهين وبيان العلل » الأستاذ نلينو فى كتابه « علم الفلك تاريخه عند العرب » ص ٢١٤ طبع روما ١٩١١ . — وانظر التفصيل الوافى عند : A. Rey, La science orientale avant les Grecs Bulletin de la Société : والمناقشة التى دارت معه فى الجمعية الفرنسية للفلسفة فى francaise de philosophie, janvier-fevrier 1931

البيروني[1] الذي وعى العلم القديم كله ، وخبر الهند ووقف على « مقولاتها » فهو يقول : « وكانوا (أي الهنود) يعترفون اليونانيين بأن ما أعطوه من العلم أرجح من نصيبهم منه ... كنت أقف من منجميهم مقام التلميذ من الأستاذ لجهلي فيما بينهم وقصوري عما هم فيه من مواضعاتهم ، فلما اهتديت قليلا لها أخذت أوقفهم على الدلل وأشير إلى شيء من البراهين وألوح لهم الطرق الحقيقية في الحسابات فانثالوا على متعجبين وعلى الاستفادة متهافتين ... فكادوا ينسبونني إلى السحر ... أقول : إن اليونانيين ... كانوا على مثل ما عليه الهنود من العقيدة ... (ولكنهم) فازوا بالفلاسفة ... نقحوا لهم الأصول ... ولم يك للهند أمثالهم ممن يهذب العلوم فلا تكاد تجد لذلك لهم خاصّ كلام إلا في غاية الاضطراب وسوء النظام . إني ما أشبه ما في كتبهم من الحساب ونوع التعاليم إلا بصدف مخلوط بخزف ... والجنسان عندهم سيان إذ لا مثال لهم لمارج البرهان » .

أما الفلسفة فالشرقيون فيها متفاوتون . فقد يمكن القول عن البابليين والمصريين والعبرانيين أنهم جهلوا الفلسفة ، بالرغم مما بلغ إليه علماؤهم من ثقافة عالية ، ولم يحصلوا فيما يلوح سوى معارف عامة جداً ومختلطة بالدين في الألوهية والنفس والعالم الآخر ، عالجوها بالبداهة والخيال دون الاستدلال . وبالعكس قد زاول الفرس والهنود والصينيون النظر العقلي المجرد إلى حد بعيد ، ولكنهم قصروا مهمة هذا النظر على تمحيص الدين وإصلاحه ؛ ولم يوفقوا إلا بعض التوفيق في تبين ماهية الفلسفة وإقامتها علماً مستقلا ، كان قصدهم الأول النجاة من الشر ؛ فلم يتخذوا العلم غاية لذاته ، بل وسيلة لهذه النجاة ، وأرادوا أن يجاوزوا العقل إلى نوع من الكشف يستغني عن التحليل والتفصيل ؛ ويتصل بموضوعه اتصالا مباشراً أو يفنى فيه . فكأنه كان مكتوباً لليونان أن يعبروا ؛ في وقت من الأوقات ؛ الهوة الفاصلة بين التجربة والعلم بمعناه الصحيح ، أي معرفة الماهية والعلة بالحد والبرهان ؛ ويضعوا الفلسفة علما كاملا قائما برأسه ؛ ويقنعوا بها لا يتطلعون إلى كشف أو إشراق ؛ وإن تطلعوا فهموه كشفا عقلياً ، إلا أن يتأثر بعضهم بالشرق في أواخر عهدهم بالتفلسف ، فيعدل عن العقل إلى الذوق ، كما وقع للأفلاطونية الجديدة . في هذه الحدود ، يصح القول أن الشرق لم يعلّم اليونان ، أي لم يلقنهم مذهباً أو منهجاً ، ولكنه حفزهم إلى التفكير بما أدى إليهم من مواد جمعها أثناء قرون طويلة ، فقاموا يعالجونها على نحو علمي . لم يفلحوا دفعة واحدة — وهذا الكتاب تاريخ محاولاتهم — ولكنهم ساروا في طريقهم ، وأعملوا العقل في نشاط وجرأة عجيبين ، فكانوا أساتذة الإنسانية .

---

(١) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (٣٥١ — ٤٤٠ هـ = ٩٦٢ — ١٠٤٨م) في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » ص ١٢ — ١٣ طبع ليبسيك ١٩٢٥ .

تنبيهات

١ — قسمنا الكتاب إلى أبواب والباب إلى فصول والفصل إلى أعداد والعدد إلى فقرات وجعلنا الأعداد متسلسلة ورقمنا الفقرات فى كل عدد بالأحرف الأبجدية ، فإذا أردنا إحالة القارئ إلى موضع من الكتاب ذكرنا بين قوسين العدد والفقرة هكذا مثلا (٣٢ — ب) .

٢ — رسمنا الأعلام اليونانية كما وردت فى الكتب العربية ، أو على نسقها ، إلا القليل منها اختصاراً أو محافظة على الأصل . أما الاختصار فبحذف حرف السين الأخير ، وهو فى اليونانية علامة من علامات « الإعراب » وليس جزءاً من الاسم ، وإثباته غير مطرد عند العرب ، بدليل قولهم سقراط وأفلاطون مثلا . وأما المحافظة على الأصل فباستبقاء حرف p باء بدل قلبه فاء ، وإنما حدث هذا القلب عن طريق الترجمات السريانية من اليونانية ، وفى الخط السريانى يرمز بحرف واحد إلى حرفى : باء وفاء فتعذر على الناقلين من السريانية إلى العربية تمييز ذينك الحرفين . أما العرب أنفسهم فلم يصطلحوا أبداً على وضع الفاء مكان p اليونانية ، وإنما أشاروا إليها بالباء (نلينو : علم الفلك تاريخه عند العرب ص ٢٢٦) .

٣ — امتازت هذه الطبعة الثالثة بتصحيح الأخطاء التى سقطت عفواً فى الطبعة الثانية وببعض التعديل والتنقيح .